الفصل الثالث

فى صحبة النبى

دخل عمر فى دين الله بالحمية التى كان يحاربه من قبل بها . فما لبث حين أسلم أن حرص على أن يذيع فى قريش كلها إسلامه . كان المسلمون لا يستطيعون أن يصلّوا بالبيت العتيق ، فقاتل عمر قريشاً حتى تركوهم فصلوا ، وكانت الدعوة إلى الإسلام تجرى خفية ، حتى إذا أسلم عمر دُعى إليه علانية ، وجلس المسلمون حول البيت وطافوا به وانتصفوا ممن غلُط عليهم . لذلك فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها ، فأقبل كثيرون من أبنائها على الإسلام . هنالك ائتمرت قريش ، فتعاهدت قبائلها فكتبوا بينهم صحيفة علقوها فى جوف الكعبة وتعاقدوا فيها على ألا تكون بينهم وبين محمد وبنى هاشم وبنى المطلب تجارة أو صلة . بذلك ازدادت الحرب شدة بين قريش والمسلمين .

وقد استعانت قريش فى هذه الحرب بكل الأسلحة : استعانت بسلاح الدعاية فزعمت أن محمداً ساحر البيان يفرّق بقوله بين المرء وابنه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته . ودست عليه النضر بن الحارث يخلفه فى كل مجلس ليقصَّ على قريش نبأ فارس ودينها ، ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً منى ، وما حديثه إلا أساطير الأولين ، اكتتبها كما اكتتبتها . وأذاعت أن غلاماً نصرانيًّا اسمه جبر هو الذى يعلّم محمداً أكثر ما يأتى به ، وكان محمد يكثر من الجلوس عند المروة إلى مَبْيعة هذا الغلام .

ثم إن قريشاً اشتدت فى إيذاء محمد وأصحابه : كانت أم جميل زوج أبى لهب تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله حيث يمر . وكان أمية بن خَلَف يهمزه ويلمزه كلما رآه . وكانت فتنة المستضعفين بمختلف أساليب العنف من مألوف ما يجرى بمكة كل يوم .

وكان رسول الله والمسلمون الذين أقاموا معه بمكة ولم يهاجروا إلى الحبشة يلقون ما يصيبهم من ذلك كله صابرين على البأساء والضراء . فلما بلغ منهم الأذى وقاطعتهم قريش احتموا فى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة ، فكانوا فيه يعانون الحرمان ، ولا يجدون من الطعام إلا القليل يحمله إليهم من أهل مكة من أخذتهم الشفقة بهم . ولولا ذلك لهلكوا جوعاً . وقد ظلوا فى هذا الشعب ثلاث سنوات حسوماً ، لا يخرجون منه إلا فى الأشهر الحرم .

وفى هذه الأشهر كان محمد ينزل إلى العرب يبلغهم رسالة ربه ، فيرى بعضهم فى صبره وصبر أصحابه على الأذى إيماناً بالحق الذى أوحاه الله إليه فيتبعونه .

وضاق هشام بن عمرو وزهير بن أبي أمية ذرعاً بالصحيفة الظالمة التى قاطعت قريش بها محمداً فاتفقا مع آخرين فنزعوها من جدار الكعبة وشقوها . ولم تثر قريش لعملهم ، فعاد محمد وأصحابه من الشعب ، وجعل يذيع دعوته بمكة وفى القبائل التى تفد إليها فى الأشهر الحرم .

وكانت قريش تزداد فى حرب محمد عنفاً كلما ازداد فى الدعوة إلى الله إمعاناً . ومات عمه أبو طالب ، وماتت زوجه خديجة ، فشجَّع ذلك قريشاً على زيادة التعرض له وإيذائه . وأراد أن يستنصر ثقيفاً بالطائف فردوه بشرّ جواب . وعرض نفسه فى المواسم على القبائل وأتاها فى منازلها ، فلم يسمع له منها أحد .

ثم كان الإسراء ، فانصرف جماعة من المسلمين عن دينهم ، وازدادت قريش إيذاء لمن أقاموا على إسلامهم حتى ضاقوا بما يلقون منها ذرعاً . على أن دعوة محمد كانت قد اتصلت على السنين ، فتركت من الأثر ما جعل كثيرين يفكرون فيها وفى الحق الذى تنطوى عليه . وكان أهل يثرب أكثر تأثراً بها من سائر العرب . لذلك أسلمت طائفة منهم كانوا النواة لبيعة العقبة الأولى ، وكان إسلامهم أول ما دعا رسول الله للتفكير فى الهجرة إلى يثرب .

فلما استدار العام أقبل من المدينة خمسة وسبعون مسلماً ، ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان . وهؤلاء هم الذين بايعوا بيعة العقبة الثانية أو الكبرى . بايعهم رسول الله على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم . ومن يومئذ أمر أصحابه بمكة أن يلحقوا الأنصار بيثرب على أن يتركوا مكة متفرقين حتى لا تثور قريش بهم . وكان هذا مبدأ الهجرة إلى المدينة ، وبدأ انتقال الإسلام إليها وانتشاره منها إلى سائر الأرجاء من شبه الجزيرة .

هذه الفترة التى انقضت بين إسلام عمر وأمر محمد أصحابه أن يلحقوا الأنصار بيثرب هى لا ريب من أدق الفترات التى مر بها رسول الله ودين الله . أفكان لعمر بن الخطاب فيها مواقف تتفق وما عُرف من صراحته وبأسه وقوة شكيمته ؟ لم نقف فى كتب السيرة وكتب التاريخ على شىء من ذلك فيه غناء . لكن ذلك ليس معناه أن عمر فى فتوة شبابه ومضاء بأسه وبالغ قوته ، قد وقف من الأحداث التى مرت حينئذ برسول الله وبالمسلمين موقفاً سلبيًّا . فهو من غير شك قد كان من أكثر المسلمين شجاعة فى احتمال ما ينزل بهم وصبراً

عليه ، ومن أشدهم دفعاً لما يستطيع دفعه من الأذى عن رسول الله وعن إخوانه المسلمين . لكنه رجل يؤمن بالنظام ويحرص أشد الحرص على اتباعه ، كان ذلك شأنه فى الجاهلية فأحر به أن يكون شأنه فى الإسلام . وقد كانت سياسة رسول الله فى هذه الفترة التى نتحدث عنها تتجنّب البأس والشدة فى كل مظاهرهما ، ولا تتجاوز المغفرة لمن أساء إليه ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌّ حميم . كان ذلك موقفه من قريش بمكة ، ومن ثقيف بالطائف ، ومن سائر القبائل التى دعاها إلى النور والهدى فاستكبرت وأعرضت عن دعوته . وهذه سياسة لم يكن ليأس عمر وقوته أن يظهرا معها ظهورهما يوم أسلم وقاتل المشركين حتى صلى وصلى المسلمون معه عند الكعبة .

فلما كانت الهجرة هاجر عمر إلى المدينة كما هاجر غيره من المسلمين ، فترك مكة فى سر من أهلها ، وإن جرت رواية تنسب إلى على بن أبي طالب بأنه قال : « ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى فى يده أسهماً واختصر عَنَزته(١) ومضى قِبل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الحِلَق واحدة واحدة يقول لهم : شاهت الوجوه ! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ! من أراد أن يُثكل أمه أو يُوتم ولده أو يرمِّل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى » .

فابن هشام وابن سعد والطبرى لا يثبتون هذه الرواية ، بل يذكر ابن هشام فى السيرة وابن سعد فى الطبقات أن رسول الله أذن للناس فى الهجرة ، على أن يتركوا مكة متفرقين حتى لا تثور قريش بهم ، فجعل المسلمون يخرجون أرسالا ، يركب أهل القوة ويعتقبون ، فأما من لم يجدوا ظهراً فيمشون . قال عمر بن الخطاب : « فكنت قد اتّعدت أنا وعيَّاش ابن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل ، وكنا إنما نخرج سرًّا ، فقلنا أيكم ما تخلّف عن الموعد فلينطلق صاحباه . فخرجت أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة ، واحتبس هشام بن العاص ففتن فيمن فتن . وقدمت أنا وعيَّاش فنزلنا قُباء » . ثم تذكر الرواية بعد ذلك أن عياشاً عاد إلى مكة استجابة لطلب أمه ، وأنه حبس هناك ثم فتن فافتتن .

هل تتناقض هاتان الروايتان ؟ أم يستطاع التوفيق بينهما بأن عمر تحدى المشركين على ما جاء فى الرواية المنسوبة إلى على بن أبي طالب ، ثم هاجر بعد ذلك فخرج سرًّا على

---

(١) العنزة : عصا لها زج كالرمح الصغير .

رواية ابن هشام وابن سعد؟ نرجّح أن عمر لم يتحدَّ أحداً، وأنه هاجر من مكة فى سر من أهلها. وهو لم يفعل ذلك ضعفاً منه أو جبناً، فهو لم يعرف الجبن ولا الضعف حياته، لكنه كان رجل نظام، فهو يتبع الجماعة ويحمل غيره على اتباعها. وقد كان المسلمون جميعاً يخرجون فى هجرتهم سرًّا فلا عجب أن يجاريهم عمر فى ذلك حرصاً على نظامهم، وحتى لا يشعر الذين يخرجون سرًّا بأنهم دون عمر فى قوة إيمانه بالله ورسوله.

بلغ عمر قُباء، فنزل بها فى بنى عمرو بن عوف على رفاعة بن عبد المنذر، ونزل أهله على رفاعة معه. فلما جاء رسول الله مهاجراً وفى صحبته أبو بكر، كان عمر فيمن استقبله وسار فى ركبه إلى المدينة. وعمل عمر مع رسول الله والمسلمين فى بناء المسجد وبناء بيت رسول الله، حتى انتقل عليه الصلاة والسلام إليه من بيت أبي أيوب الأنصارى.

كانت الهجرة إلى المدينة بدء عهد جديد وسياسة جديدة فى حياة الإسلام والمسلمين. اجتمع الذين هاجروا من مكة إلى الذين أسلموا بالمدينة، فكانوا قوة رفعت صوت المسلمين وأعلت كلمتهم. وأراد رسول الله أن يزيد هذا الصوت رفعة، وهذه الكلمة قوة، بأن يزيد ما بين المهاجرين والأنصار من رابطة، فيضاعف فى نفوسهم الشعور بوحدتهم وعزتهم. لذلك دعاهم ليتآخوا فى الله أخوين أخوين، فكان هو وعلى بن أبي طالب أخوين، وكان عمه حمزة ومولاه زيد بن حارثة أخوين، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين، وتآخى كذلك كل واحد من المهاجرين مع واحد من الأنصار إخاء جعل له الرسول حكم إخاء الدم والنسب. وفى هذا الإخاء كان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، أخو بنى سالم بن عوف بن عمرو بن عوف الخزرجى، أخوين(١)

عززت هذه المؤاخاة مكانة المسلمين بالمدينة فخشى أهل يثرب من المشركين ومن اليهود بأسهم. لذلك لم يتردد اليهود فوادعوا رسول الله، وعقدوا معه عهداً يقرِّر حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة. وأضعف هذا العهد الذين أقاموا على شركهم من أوس المدينة وخزرجها، كما قوى المسلمين وزادهم بأساً وعزة.

هذه المكانة التى بلغها المسلمون فى حياة المدينة العامة قد فتحت لعمر بن الخطاب ميادين لم تكن مفتوحة أمامه بمكة. إنه رجل نظام، ورجل رأى يناضل عنه فى سبيل

---

(١) فى روايات ابن سعد رواية أن رسول الله آخى بين أبى بكر وعمر، ورواية أخرى أنه آخى بين عمر وعويم بن ساعدة، وفى رواية ثالثة بين عمر ومعاذ بن عفراء: وثم روايات أخرى أثبتها ابن حجر فى فتح البارى. والرواية المشهورة المتواترة أن عمر وعتبان بن مالك كانا فى هذا الإخاء أخوين.

النظـام . وقد كان المسلمون بمكة قلة عصمها إيمانها بالله ورسوله فلم تُفْتَنْ ولم تضعف ، متخذة من المقاومة السلبية سلاحها لدفع من يحاول فتنتها عن دين الله . والمقاومة السلبية لا تتفق وطبيعة عمر الثائرة القوية المتحفزة لتحدِّى من يتعرض لصاحبها . لذلك لم يكن بمكة متسع لنشاطه يبدو فيه وتظهر آثاره . أما وقد أصبح للمسلمين فى حياة المدينة ونظامها هذا الأثر ، فقد آن لعمر أن تظهر شخصيته وأن يكون له فى الحياة العامة أثره .

بل لقد بدت فى عمر صفات لم تعرف له بمكة : بدا أنه رجل مُحَدَّثٌ ، يلهم الرأى وكأنما حُدِّث بما ظن . لما اطمأن رسول الله بالمدينة كان الناس يجتمعون للصلاة حين مواقيتها بغير دعوة . وأراد رسول الله أن يجعل للمسلمين بوقاً كبوق اليهود يدعون به لصلاتهم ؛ لكنه كره البوق ، فأمر بناقوس يدق ساعات الصلاة كما يدق الناقوس للنصارى ، فنُحت الناقوس وكُلِّف عمر أن يشترى الغداة له خشبتين . وبينما عمر نائم فى داره إذ رأى فى المنام : « لا تجعلوا الناقوس ، بل أذّنوا للصلاة » ، فذهب إلى رسول الله يخبره بما رأى فإذا الوحى سبقه به .

ويروى أن عبد الله بن زيد سبقه إلى رسول الله فقال له : يا رسول الله ، إنه طاف بي هذه الليلة طائف : مرّ بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً فى يده ، فقلت له : يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة ، قال : أفلا أدلّك على خير من ذلك ؟ وألقى إليه صيغة الأذان ، فأمر رسول الله بلالا فأذن بها ، فسمعها عمر وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول الله يجر رداءه ويقول : يا نبى الله ! والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى !

من يومئذ بدأ الأذان للصلاة يعطر جو المدينة كل يوم خمس مرات فكان الحجة القائمة على أن كلمة المسلمين أصبحت العليا . والأذان للصلاة دعوة للنظام الذى يزيد الآخذين به أيداً وقوة ، أما وقد حُدِّث به عمر قبل أن ينزل به الوحى ، فذلك الدليل على أن دين الحق قد أخذ على هذا الرجل القوى مسالك نفسه ، فصار لا يفكر فى شىء تفكيره فى النظام الذى يزيد هذا الدين عزًّا وانتشاراً .

على أن اليهود والمشركين الذين أقاموا على دينهم برموا بسلطان المسلمين وقوتهم ، فبدءوا يأتمرون بهم ويعملون على مناوأتهم . وقد كان للمسلمين فى مقاومة مؤامراتهم أساليب لا تخلو من شدة وعنف ؟ وكان عمر بن الخطاب يشارك فى هذه المقاومة كغيره من المسلمين .

وأراد رسول الله أن يرهب اليهود والمنافقين ، وأن يُقنع قريشاً بأن الخير لها أن تصالحه على حرية الدعوة لدين الله ، فبعث السرايا ، وأمَّر عليها حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن جحش ، كما خرج بنفسه على رأس بعضها . ولم تذكر كتب السيرة ولا كتب التاريخ شيئاً عن اشتراك عمر فى هذه السرايا الأولى . ولعل رسول الله قد آثر أن يبقى عمر بالمدينة لما كان من حسن سياسته مع صراحته فى الحق . يشهد بذلك ما حدث حين قدم وفد من نصارى نجران إلى المدينة يجادلون رسول الله ، فرد جدالهم وجدال اليهود بقوله تعالى : « قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » ثم دعا الوفد إلى قبول ما نزل عليه من ذلك أو يلاعنهم . ورأى هؤلاء النصارى أن يعودوا إلى قومهم ولا يلاعنوه ، ثم رأوا شدة حرصه على العدل ، فرغبوا إليه فى أن يبعث معهم رجلا يحكم بينهم فى أمور اختلفوا عليها . فقال لهم رسول الله : ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين . روى ابن هشام أن عمر بن الخطاب كان يقول : ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فرحتُ إلى الظهر مهجِّراً . فلما صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سلّم ، ثم نظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلت أتطاول له ليراني ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال : اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه فذهب بها أبو عبيدة » .

وإنما طمع عمر فى أن يوليه رسول الله الحكم لما كان يتولاه هو وآباؤه فى الجاهلية من السِّفارة والحكم فى المنافرات بين القبائل . فاختيار النبي أبا عبيدة مع ما كان لعمر فى نفسه من مكانة ، يشهد بأن رسول الله حرص على بقاء ابن الخطاب بالمدينة كيما يستعين بصراحته وجرأته وحسن رأيه هذا ، على أنه قد يكون خشى شدة عمر وغلظته ، فاختار أبا عبيدة لأنه جمع بين الأمانة ولين الجانب ورضا النفس .

لم تقنع قريش بما أراد رسول الله من موادعتها على حرية الدعوة لدين الله ، بل ظلت على عداوتها له ولأصحابه . فلما خرج يلقاها ببدر فى ثلثمائة من المسلمين ، وعرف أن الذين جاءوا من مكة يزيدون على الألف ، استشار أصحابه : أيقاتلهم أم يعود أدراجه إلى المدينة ، وكان عمر كما كان أبو بكر ممن أشاروا بالقتال . فلما بدأت المعركة ثم حمى الوطيس ، كان مِهجَع مولى عمر بن الخطاب أول قتيل من المسلمين . وفى أثناء المعركة قتَل عمر خاله العاص بن هشام . يروى أن عمر التقى يومئذ هو وسعيد بن العاص فقال له :

« إني أراك كأن فى نفسك شيئاً . أراك تظن أني قتلت أباك . إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله ، ولكني قتلت خالى العاص بن هشام بن المغيرة . فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور برَوْقِهِ (١) فحِدتُ عنه ، وقصد له ابن عمه علىٌّ فقتله » .

هذه الكلمة التى قالها عمر هى أول ما يروى عنه فى هذه الغزوة التى وجّهت تاريخ الإسلام وتاريخ العالم كله وجهة جديدة ، وهى تصور الأثر الذى تركه الإسلام فى نفس عمر أدق تصوير . ففى سبيل هذا الدين يجب أن يستهين الإنسان بكل شىء ، ويجب ألا يتردد حين القتال إذا واجهه أخ أو قريب . إنه يقدم حياته لله وفى سبيل الله ، فليس له أن يتردد لأى اعتبار دون ما ينصر دين الله .

وأسَر المسلمون سبعين من قريش أكثرهم من ساداتها وذوى المكانة فيها ، فكان عمر بن الخطاب أشد المسلمين على هؤلاء الأسرى وأحرصهم على أن يقتلوا . وقد طمع الأسرى فى الحياة وأن يُفتدوا ، فبعثوا إلى أبي بكر أن يكلم رسول الله ليمنّ عليهم أو يفاديهم ، ووعدهم أبو بكر خيراً . وخافوا أن يفسد عمر عليهم أمرهم ، فأرسلوا إليه فجاءهم فقالوا له مثل قولهم لأبي بكر ، فنظر إليهم شزراً . وتحدَّث أبو بكر إلى رسول الله ليمنّ على هؤلاء الأسرى أو يفاديهم فيأخذ منهم ما يأخذ قوة للمسلمين . أما عمر فكان الشدة كل الشدة والبأس غاية البأس ، قال : « يا رسول الله ! هم أعداء الله ، كذّبوك وقاتلوك وأخرجوك ، اضرب رقابهم . هم رءوس الكفر وأئمة الضلالة ، يوطئ الله بها الإسلام ويذلّ بهم أهل الشرك » .

واستشار رسول الله المسلمين فى هذا الأمر فانتهوا إلى قبول الفداء ، وأفدى النبي الأسرى وأطلق سراحهم . لكن الوحى ما لبث بعد ذلك أن نزل بقوله تعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

وكذلك كان عمر مُحَدَّثاً فيما أبدى من رأى عن أسرى بدر ، كما كان مُحَدَّثاً فى أمر النداء بالأذان للصلاة . وبذلك زاد فى نظر النبي وفى نظر المسلمين قدْرُ رأيه وزادت عند النبي وعند المسلمين رفعة مكانته . .

وقدم مِكْرز بن حفص فى فداء سُهيل بن عمرو ، وكان سهيل خطيباً بالغ الحجة . فلما رأى عمر مِكْرزاً يفتديه ، أسرع إلى رسول الله يقول : دعنى أنزع ثَنِيَّتَىْ سهيل بن عمرو فيدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً . وأجابه رسول الله : « لا أمثّل به فيمثل

---

(١) روق الثور : قرنه .

الله بي وإن كنت نبيًّا» . وعبارة عمر صريحة الدلالة فى إصراره على رأيه وألا يترك القادرون من هؤلاء الأسرى يعودون لمناوأة المسلمين . وهو قد أصر على هذا الرأى مع ما كان من إقرار جماعة المسلمين قبول الفداء .

نزل الوحى مؤيداً رأى عمر فى أمر الأسرى ، فزاد ذلك عمر قرباً من النبي ومكانة عنده ، وأصبح وزيره كما كان أبو بكر وزيره . وكانت حفصة بنت عمر زوجاً لخُنَيْس ابن حذافة أحد السابقين إلى الإسلام . وقد فارقها خُنَيْس قبل بدر بأشهر ، فتزوجها رسول الله كما تزوج عائشة بنت أبي بكر من قبل . وربطت المصاهرة بينه وبين عمر ، وأتاحت لابن الخطاب أن يتردد عليه ، كما كان أبو بكر يتردد عليه .

استدار العام وخفَّتْ قريش تأخذ لثأرها من بدر ، وأشار الناس على رسول الله بالخروج لملاقاتهم بظاهر المدينة عند أُحُد . ودخل رسول الله بيته ، ودخل معه أبو بكر وعمر ، فعمماه وألبساه درعه ، وتقلد سيفه وسار فى أصحابه يواجه عدوّه . وانتصر المسلمون أول النهار ، ثم دارت الدائرة عليهم حين خالف الرماة أمر رسول الله فنزلوا من مراكزهم فوق الجبل يشاركون الناس فى الغنيمة ؛ فقد دار خالد بن الوليد بفرسان قريش وراء المسلمين ، ثم صاح صيحة ردت قريشاً لمهاجمة محمد وأصحابه وهم فى شغل بجمع أسلاب الموقعة . واضطرب المسلمون لهجوم قريش وتداعت صفوفهم ، ثم زادها تداعياً أن صاح مشرك : إن محمداً قد قتل ؛ فقد خيل إلى المسلمين حين سمعوا هذه الصيحة أنهم لم يعد لهم ولا للدين الذى آمنوا به بقاء . وما بقاء هذا الدين ثم ما بقاؤهم وقد وعد الله رسوله النصر ، وهذا رسول الله يقتل بيد المشركين ، وهؤلاء أصحابه يهزمون ويفتك المشركون بهم ! بل لقد ألقى رجال من كبار المهاجرين والأنصار بأيديهم وتولاهم اليأس ، فانتحوا ناحية من الجبل جلسوا فيها . وانتهى أنس بن النضر إلى مجلسهم ذاك ، فألفى عمر بن الخطاب وطلحة ابن عبيد الله وطائفة من المسلمين معهم وهم فى اضطرابهم ويأسهم لا يدرون ما يصنعون . عند ذلك هتف بهم : « ما يجلسكم ؟ » قالوا : « قتل رسول الله » . قال : « فماذا تصنعون بالحياة بعده ! قوموا فموتوا على ما مات عليه » . ثم استقبل المشركين ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، وأبلى فى قتالهم أحسن البلاء ، ولم يُقْتل حتى ضُرِب سبعين ضربة أزالت معالمه ، فلم يعرف جثمانه بعد موته إلا أخته ، عرفته ببنانه .

على أن المسلمين مالبثوا ، حين عرفوا أن رسول الله لم يمت ، أن عادوا إلى إيمانهم بأن الله ناصر رسوله ، فأسرع إليه أبو بكر وعمر وعلى بن أبي طالب والزبير بن العوام ورهط

غيرهم يمنعونه . وعرف خالد بن الوليد مكانهم ، فعلا الجبل على رأس فرسان معه يريد أن يقضى على محمد ومن حوله . لكن عمر بن الخطاب ورهطاً من المسلمين واجهوا خالداً وفرسانه ، وقاتلوهم مستميتين دفاعاً عن الرسول فردوهم على أعقابهم ، ولم يصل خالد إلى بغيته .

قدمت أن ما حُدِّث به عمر عن الأذان للصلاة يشهد بأن دين الحق كان قد أخذ على هذا الرجل القوى مسالك نفسه ، فجعله لا يفكر فى شىء تفكيره فيه وفى النظام الذى يزيده عزًّا وانتشاراً . وموقف عمر من أسرى بدر ونزول الوحى فيهم مؤيداً رأيه ، ووقفته فى وجه خالد بن الوليد قبل أن يفاجئ النبى ومن معه ، هذان الموقفان يدلان أبلغ دلالة على استئثار دين الله بنفس عمر استئثاراً جعله يتعصب له ويشتد فى نصرته . ولا عجب فى ذلك ؛ فقد كان عمر منذ نشأته مؤمن القلب بما يعتقده . وإذا آمن القلب وهب المؤمن نفسه هبة خالصة لما يؤمن به . لقد رأينا مواقف عمر فى جاهليته : رأينا تعصبه لقريش على غيرها من القبائل ، وتعصبه لدين قريش على دعوة محمد تعصباً جعله يشارك فى تعذيب المسلمين الأولين ؛ فلما هدى الله قلبه إلى الإيمان به ، وقف فى جانب دين الله ينصره بالحمية التى كان يقاتله من قبل بها . والآن وقد عز المسلمون بدينهم ونبيهم ؛ فلا شىء يعدل عند عمر أن ينصر هذا الدين وان يضحى له بكل شىء ، وأن يضحى فى سبيله بحياته . وما أصابه وأصاب المسلمين من يأس حين تحدثت قريش بوفاة النبى ، كان بعض هذا التعصب للدين تعصباً جعل الحزن يخرج بعمر عن سداده . فلما عرف أن رسول الله حى أقبل يلقى بحياته فى سبيل ما آمن به قلبه ، فنصره الله على القائد العبقرى الذى اعتزت به قريش والذى كسب لها أُحُداً .

على أن إيمان عمر وتعصبه لهذا الإيمان لم يُنَهْنِهَا من اعتزازه بنفسه واعتداده برأيه أمام رسول الله نفسه . وقد كان عمر فى هذا الاعتزاز بالرأى من أقوى المسلمين شكيمة وأبلغهم حجة . صحيح أن المسلمين جميعاً كانوا لا يعرفون الجمود ، وكان صاحب الرأى منهم يشير على رسول الله ويجادل لينصر رأيه أو يقتنع بنقيضه ، شأنه فى ذلك شأن المؤمنين فى عهود الثورة ، إذ يريدون أن يبلغوا بها إلى أسمى ما تنطوى عليه مبادئها . لكن عمر كان أصرحهم وأكثرهم جرأة . لم يمنعه حبه رسول الله وعظيمُ إيمانه برسالته أن يدلى أمامه برأيه وأن يصر عليه . وأنت قد رأيته فى موقفه من أسرى بدر كيف طلب أن ينزع ثنيَّتَى سهيل ابن عمرو بعد ما قبل المسلمون فداء هؤلاء الأسرى . وسنرى له مثل هذه المواقف من بعد فى صحبة رسول الله وفى خلافة أبى بكر ، ثم نرى من اجتهاده فى حياة الرسول ما أقر القرآن

بعضه ، كما نرى الكثير من الأحكام والمبادئ التي اجتهد فيها برأيه بعد وفاة الرسول باقياً يأخذ المسلمون به إلى اليوم .

لما سار رسول الله لقتال بني المُصْطَلِقِ وفرغ منهم ، ازدحم رجلان من المسلمين على الماء واختلفا فاقتتلا . وكان أحد الرجلين من المهاجرين والآخر من الأنصار ؛ فصرخ المهاجر : يا معشر المهاجرين ! وصرخ صاحبه : يا معشر الأنصار ! عند ذلك قال عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين بالمدينة لمن حوله : « لقد كاثرنا المهاجرون فى ديارنا والله ما أمرنا وإياهم إلا كما قال الأول : سَمِّن كلبك يأكلك . أما والله إن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . وبلغت هذه المقالة رسول الله وعنده عمر بن الخطاب فهاج هائج عمر فقال : يا رسول الله ! مُرْ به عبّاد بن بشر فليقتله . وأجابه رسول الله فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ! وأمر أن يؤذن بالرحيل فى ساعة لم يكن المسلمون يرتحلون فيها .

وذهب ابن أُبيّ إلى رسول الله ينكر ما قال ، فنزل الوحى بتكذيبه . عند ذلك ذهب عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، وكان مسلماً حسن الإسلام ، فقال : « يا رسول الله ! إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ . فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده منى . وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل رجلاً مؤمنا بكافر فأدخل النار » . وأجابه رسول الله : « إنا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » وأقام ابن أُبيّ بعد ذلك ينظر إليه أهل المدينة شزراً ولا يقيمون له وزناً . وتذاكر النبى يوماً شئون المسلمين مع عمر ، وتناول الحديث ذكر ابن أُبيّ وتعنيف قومه إياه ، فقال رسول الله : « كيف ترى ياعمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى أقتله لأرعدت له آنفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » . قال عمر : « قد والله علمتُ لأمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى » .

ولما مات عبد الله بن أبيّ همّ النبي بالصلاة عليه ، فقام عمر يذكر كيد الرّجل للإسلام ونكايته به ، ويذكر قوله تعالى : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ » . وابتسم النبي لحماسته فى الطعن على رجل مات وقال : « لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له زدت » . وصلى عليه ومشى معه حتى فرغ من دفنه وقد نزل بعد ذلك قوله تعالى : « وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِه » .

وأذّن رسول الله فى الناس بالحج لست سنوات من هجرته إلى المدينة ، فلما قرب من مكة خرجت فرسان قريش تلقاه لتصده عن دخولها ؛ فقد أقسمت لا يدخلها محمد عليهم عنوة . وكان رسول الله إنما جاء حاجًّا ولم يجئ غازياً . لذلك نزل الحديبية فى أصحابه وعزم أن يفاوض قريشاً لتفسح لهم طريق الطواف بالبيت وأداء فريضة الحج . ودعا إليه عمر بن الخطاب ليدخل مكة فيتحدث إلى قريش فيما جاء له . قال عمر : « يا رسول الله إنى أخاف قريشاً على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها . ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان » . ودخل عثمان مكة ، وطال حديثه مع قريش واحتباسه عن المسلمين حتى ظنوا أنه قتل ، وبايع رسول الله أصحابه بيعة الرضوان لقتال قريش أن قتلوا عثمان . على أن عثمان عاد يذكر أن قريشاً تأبى على المسلمين أن يدخلوا مكة هذا العام حفظاً لهيبتها بين العرب ، لكنها لا تأبى المفاوضة للخروج من موقف الخصومة بعد أن أيقنت أن محمداً جاء حاجًّا ولم يجئ غازياً . واتصل الحديث بين الفريقين ابتغاء التعاهد والصلح . ولقد ضاق عمر صدراً بما كان النبى يقبله فى هذه المحادثات ، حتى لقد وثب فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر ! أليس برسول الله ؟ قال أبو بكر : بلى ! قال عمر : أولسنا بالمسلمين ؟ قال أبو بكر : بلى ! قال عمر : أوليسوا بالمشركين ؟ قال أبو بكر : بلى ! قال عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر الزم غَرزه[1] ، فإنى أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

لم يقنع عمر بهذا الحديث بينه وبين أبى بكر ، فذهب إلى رسول الله ، والغضب لا يزال آخذاً منه ، فقال : يا رسول الله ! ألست برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال : فعلامَ نُعطى الدنية فى ديننا ؟ ! قال رسول الله : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعنى ، وسكت عمر لهذا الجواب ، وكان يقول من بعد : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلّى وأعتق من الذى صنعت يومئذ ، مخافة كلامى الذى تكلمت به حين رجوت أن يكون خيراً .

أرأيت إلى هذا الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالرأى ! وما لعمر لا يعتز برأيه ، وقد أيده الوحى فى موقفه من أسرى بدر ! ولقد ظل على رأيه حين أشار بقتل عبد الله بن أبىّ حتى أيقن أن أمر رسول الله أعظم بركة من أمره ، كما ظل على رأيه فى عهد الحديبية

---

(١) أى اتبعه ولا تخالف أمره . وأصل الغرز : ركاب الرحل من جلد .

حتى نزل الوحى يؤيد رسول الله ويذكر أن هذا العهد فتح مبين . وكذلك كان يجادل رسول الله فى الرأى مجادلة رجل لرجل حتى يتبين له الحق ، إما بنزول الوحى ، أو بتأييد الواقع رأيه ، أو نقض الواقع له .

رأيت أن عمر لم يتجه بتفكيره إلى النظريات المجردة يقلبها ويمتحنها ليرتب عليها آثارها المنطقية ، وإنما كان اتجاهه فى الإسلام ، كما كان قبله ، إلى ما له أثر عملى فى واقع الحياة الحاضرة أمامه . وهذا الأثر العملى هو الذى استثار رأيه فى أسرى بدر ، وفى أمر ابن أبى ، وفى عهد الحديبية ، كما أنه هو الذى استثار رأيه من بعد فيما لم ينزل به الوحى من شئون المسلمين العامة ، ومن شئون رسول الله الخاصة .

كان لأهل مكة غرام بالنبيذ ، وكان عمر صاحب خمر فى الجاهلية . وقد ظل المسلمون يشربون الخمر طيلة مقامهم بمكة وعدة سنوات بعد الهجرة إلى المدينة . ورأى عمر ما يهيجه الشراب من سَوْرة الغضب فى النفوس ، وما يدعو إليه من تنابز الشاربين ولز بعضهم بعضاً . وكثيراً ما انتهز اليهود والمنافقون أوقات الشراب ليثيروا بين الأوس والخزرج منازعاتهم القديمة . عند ذلك سأل عمر رسول الله عن الخمر ، ولم يكن قد نزل فيها قرآن وقال : اللهم بيِّن لنا فيها ، فنزلت الآية : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » . ولما لم يكن فى هذه الآية نَهىٌ عن الخمر فقد ظل بعض المسلمين يقضون ليلهم متوفرين على شرابهم ، فإذا ذهبوا إلى الصلاة لم يعلموا ما يقولون فيها . وعاد عمر فقال : اللهم بين لنا فى الخمر ، فإنها تذهب العقل والمال ! فنزلت الآية « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » . ومن يومئذ كان منادى الرسول للصلاة يقول : لا يقربن الصلاة سكران . وأقل المسلمون من الشراب وإن لم ينتهوا عنه ، فبقى من أثره فى بعضهم ما يسوء . شج أحد الأنصار مهاجراً بعظمة من عظام الجزور التى كانوا يأكلونها حين شرابهم لخلاف قام بينهما ، وثمل حيان فتشاجرا فشج بعضهم بعضاً فاضطغنا . ورأى عمر ذلك فعاد يقول : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بياناً شافياً فإنها تُذهب العقل والمال ، فنزل قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » . ولم يرق أُناساً من المسلمين هذا النهى فقالوا : أتكون الخمر رجساً وهى فى بطن فلان وفلان قتل يوم أُحُد ، وفى بطن فلان وفلانٌ قتل يوم بدر ؟ ! فنزل قوله تعالى :

« لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا ٱتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ، ثم ٱتَّقَوْا وآمنوا ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ » .

هذا موقف عمر فى شأن من شئون المسلمين العامة قبل أن ينزل الوحى بحكم فيه . ولم تكن شئون رسول الله الخاصة فى رأى عمر كشئون غيره من الناس ، بل كانت كشئون المسلمين العامة سواء . لذلك لم يكن يأبى أن يتعرض لها وأن يحدث النبى فيها . روى البخارى عن عائشة أنها قالت : « كان عمر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أحجب نساءك فلم يفعل . وكان أزواج النبى يخرجن ليلا قِبَلَ المناصع[1] . خرجت سودة بنت زمعة ، وكانت امرأة طويلة ، فرآها عمر بن الخطاب وهو فى المجلس فقال : عرفتك ياسودة ، حرصاً على أنه ينزل الحجاب ، فأنزل الله عز وجل آية الحجاب » . وروى عن عمر أنه قال : « قلت : يا رسول الله ! سيدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فنزلت آية الحجاب » وآية الحجاب قوله تعالى : (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً . وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) وقوله جل شأنه : (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ ونِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ، ذلك أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً) .

كان لعمر مع النبى فى شئونه الخاصة موقف آخر ، لعله لم يكن يقفه لولا أن ابنته حفصة كانت من أمهات المؤمنين . ذلك أن أزواج النبى أوفدن إليه يوماً زينب بنت جحش وهو عند عائشة تصارحه بأنه لا يعدل بينهن ، وأنه لحبه عائشة يُظلمهن . فلما ولدت مارية إبراهيم وشُغف رسول الله بالطفل حبًّا ، ظاهرت عليه حفصة وعائشة وتابعهما سائر أزواجه ، حتى رأى أن يهجرهن وأن يهدد بفراقهن . ورد فى الصحيح عن ابن عباس أنه سأل عمر : مَنِ اللتان تظاهرتا على النبى من أزواجه ؟ وأجابه عمر : تلك حفصة وعائشة ، ثم قال : « والله إن كنا فى الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً ، حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم . فبينما أنا فى أمر آتمره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ! فقلت لها : وما لك أنت ولما هاهنا وما تكلفك فى أمر أريده ؟ ! فقالت لى : عجباً لك يابن الخطاب ! ما تريد أن تُراجعَ أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه

---

(١) المناصع : المواضع يتخلى فيها لقضاء الحاجة .

غضبان ، قال عمر : فآخذ ردائى ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة ، فقلت لها : يا بنية ! إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه . فقلت : تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله . يابنية لا تغرنك هذه التى قد أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها . ثم خرجتُ حتى أدخل على أم سلمة لقرابتى منها فكلمتها ، فقالت لى أم سلمة : عجباً لك يابن الخطاب ! قد دخلت فى كل شيء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه . قال عمر : فأخذتنى أخذاً كسرتنى به عن بعض ما كنت أجد ، فخرجت من عندها . وكان لى صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر ، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر ، وكنا نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأت صدورنا منه ، فإذا صاحبي الأنصارى يدق الباب ، وقال : افتح افتحْ . فقلت : جاء الغساني ؟ فقال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه . فقلت : رغِم أنف حفصة وعائشة !. فأخذت ثوبي فأخرج حتى جئت ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشربة يرقى إليها بعجلة[1] ، وغلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسود على رأس الدرجة . فقلت له : قل هذا عمر بن الخطاب ، فأذن لى . قال عمر: فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث ، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم » .

وفى رواية أن النبي اعتزل نساءه شهراً كاملاً ، فلما أوفى الشهر على التمام أقام المسلمون بالمسجد ينكتون الحصى ويقولون : طلّق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه . عند ذلك ذهب عمر إلى رسول الله فى مشربته ، فنادى غلامه رباحاً كى يستأذن له ، ولم يجب رباح ، فكرر عمر النداء . فلما لم يجب رباح للمرة الثانية ، رفع عمر صوته قائلاً : يا رباح استأذن لى عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإني أظنه ظن أني جئت من أجل حفصة ، والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربن عنقها . وأذن له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل ، وبعد هنيهة قال : يا رسول الله ، ما يشق عليك من أمر النساء ؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك . ثم انعكف يحدث النبي حتى تحسر الغضب عن وجهه وحتى ضحك .

ويروى أن عمر دخل على نساء النبي حين اعتزلهن النبي وقال لهن : إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن . وأجابته إحداهن قائلة : ياعمر ! أما فى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) العجلة هنا : جذع نخلة ينقر فيجعل فيه مثل الدرج ليرقى عليه .

ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ! وفى هذا كله نزل قوله تعالى : « يأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمِ . وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قال نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ . إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً » . فلما نزلت هذه الآية رجع رسول الله إلى نسائه تائبات عابدات مؤمنات [1] .

هذه أمور أثبت المؤرخون جميعاً أن الوحى نزل فيها يؤيد رأى عمر . وفى صحيح البخارى أن عمر قال : « وافقنى ربى فى ثلاث قلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلًّى ، فنزلت : (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) . وقلت يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البر والفاجر ، فنزلت آية الحجاب . واجتمع نساء النبى صلى الله عليه وسلم فى الغيرة عليه فقلت لهن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ، فنزلت هذه الآية » . ولعل نزول الوحى موافقاً رأى عمر فى هذه المواقف هو الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه » ، أو يقول : « إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به » .

لهذه المواقف الكثيرة التى وقفها عمر من أسرى بدر ، ومن عبد الله بن أبىّ ، ومن الحديبية ، ومن حكم الخمر ، ومن نساء النبى ، دلالة تلفت النظر ، وتكشف عن جانب من شخصية عمر كان يزداد على الزمن وضوحاً وقوة . ولسنا نقصد جرأته وصراحته وبروز شخصيته ، وما إلى ذلك مما أسلفنا ذكره ، ولسنا كذلك نريد حسن رأيه وواسع علمه ، وإنما نرمى إلى ما دلت هذه المواقف عليه من عظيم اشتغاله بالشئون العامة ، وتوفره عليها توفر من تعنيه سياسة قومه وتدبير أمورهم والعمل على حسن نظامهم . والواقع أنه برز فى هذه الناحية أكثر مما برز غيره ؛ ولذلك كان النبى يدعوه وزيره ، وكان حين يشاور أصحابه يجعل لرأى عمر مكانة تعدل مكانة الرأى الذى يبديه أبو بكر صفىّ رسول الله وخليله .

وكان قدر عمر لا يفتأ لهذا يسمو فى عيون المسلمين جميعاً ، مع أن النبى كان يخالف

---

(١) راجع فى تفصيل هذا الحديث عن نساء النبى كتاب (حياة محمد) ص ٤٥٠ – ٤٥٥ . (الطبعة العاشرة)

رأيــه فى كثير من المواقف مخالفة ترجع إلى ماكان لعمر من صلابة تجاوز الحزم ، ولا تلتقى من ثم مع مـا جمع رسول الله بين الحزم والحسنى ، وبين القدرة والعفو .

لما سار المسلمون إلى فتح مكة ، خرج العباس بن عبد المطلب ، فرأى جيش ابن أخيه وقوته وأن لا قبل لقريش به ، وخرج أبو سفيان بن حرب فى جماعة يتنطسون الأخبار . وفيما أبو سفيان يتحدث إلى أصحابه عرف العباس صوته فقال له :

يا أبا سفيان ، هذا رسول الله فى الناس ، وا صباح قريش إذا دخل مكة عنوة ! قال أبوسفيان : فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ وكان العباس على بغلة النبى البيضاء ، فأركبه فى عجزها ، ورد أصحابه إلى مكة وسار به يريد النبى ، ورأى عمر البغلة وعرف أبوسفيان ، وأدرك أن العباس يريد أن يجيره ، فأسرع إلى خيمة النبى وطلب إليه أن يضرب عنقه . فقال العباس : إنى يا رسول الله قد أجرته . واحتدمت المناقشة بين عمر والعباس فى أمر أبى سفيان ، فأرجأ رسول الله الأمر إلى الصباح . وفى الصباح أسلم أبو سفيان بعد حوار بينه وبين رسول الله ، فجعل النبى له من الفخر أنه : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » وذهب عمر محنقاً لنجاة أبى سفيان ، حتى إذا فتحت مكة أبوابها ، علم أن أمر رسـول الله فى هذه كأمره من قبل فى قصة ابن أبى ، كان أعظم بركة من أمره .

على أن صرامة عمر وصراحته ومخالفة النبى رأيه فى بعض ما أشار به لم تنقص يوماً من مكانة عمر أو من احترامه . ذلك بأنه كان صادق الإخلاص فى كل ما يراه ويشير به . وللمخلص علينا حق احترامه وإكباره ، وإن لم نأخذ بمشورته ؛ ما بالك به إذا جاء الحق على لسانه فى الكثير من مواقفه ! ثم ما بالك به إذا خالفنا فرأيناه على الحق فرجعنا إلى رأيه ! بعث النبى أبا هريرة يبشر بالجنة من شهد أن لا إله إلى الله مستيقناً بها قلبه . فلما سمعه عمر رده إلى رسول الله ردًّا عنيفاً ، وذهب فى أثره يسأل رسول الله : أحق قد بعثته يبشر الناس هذه البشرى ؟ فلما أجاب رسول الله أن نعم ، قال عمر : فلا تفعل ، فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها ، فخلِّهم يعملون . وأخذ رسول الله برأيه وقال : فخلهِّم .

ولما اشتد برسول الله مرضه الأخير أشار إلى رجال من المسلمين كانوا فى البيت حوله فقال : « إيتونى بدواة وصحيفة ، أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً » . واختلف الحاضرون ، يقول بعضهم : « قربوا ليكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده » ، ويخالفهم آخرون على رأسهم عمر فيقولون : « إن رسول الله قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ، وحسبُنا كتاب الله » .

ورأى النبي خلافهم فقال : « قوموا . ما ينبغي أن يكون بين يدى النبي خلاف » . ولم يكتب ، ولعله قد تأثر برأى عمر أكثر مما تأثر برأى غيره ، لما عرف من صدقه فى إخلاصه وصراحته فى رأيه .

والرجل أجدر باحترامنا وإكبارنا ما أنكر ذاته فصدر رأيه عن إخلاص للخير العام وحرص عليه . وكان عمر فى ذلك خير مثل . وقد رأيت فيما قدمنا من آرائه كيف تتره عن كل شائبة . بل لقد رأيته كيف ود أن يُحرِّم الله الخمر ولم تكن محرمة ، وقد كان فى جاهليته رجل خمر يحبها ويتوفر على شربها . فهو إنما ود أن تحرَّم حرصاً على خير الجماعة وتماسكها وقوة نظامها . ثم إنه كان من أشد الناس زهداً فى المال ، فكان إذا أعطاه رسول الله مالا من فىء غنمه المسلمون قال : أعطه أفقر إليه منى . وقال ذلك يوماً لرسول الله فقال له : خذه فتموَّله وتصدق به .

بل لقد بلغ من زهده أن أصاب أرضاً بخيبر ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندى منه ، فما تأمر به ؟ وأجابه رسول الله : « إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها » . فتصدق عمر بها فى الفقراء والقربى وفى الرقاب وفى سبيل الله والضيف ، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم صديقاً غير متمول فيها ، وقال : إنه لا يباع أصلها ولا توهب ولا تورث . فكانت هذه أول صدقة تصدق بها فى الإسلام ، وكانت الأصل الأول لنظام الوقف عند المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

رجل ذلك شأنه وهذا زهده لا عجب أن كان موضع التقدير والاحترام من كل المسلمين على ما كان فى خلقه من شدة وغلظة ، وموضع المحبة والإكبار من رسول الله حتى كان يدعوه يا أخى . استأذنه عمر يوماً فى العمرة فأذن وقال له : « لا تنسَنا يا أخى من دعائك » وكان عمر كلما ذكر هذه الكلمة يقول : ما أحب أن لى بها ماطلعت عليه الشمس لقوله « يا أخى » .

وإخلاصه وتنزهه عن الهوى وحبه العدل هو الذى أبقى الفاروق لقباً له . وقد اختلف فيمن سمى عمر الفاروق ، روى عن عائشة أنها سئلت عن ذلك فقالت : النبي عليه السلام . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ، وهو الفاروق فرق به بين الحق والباطل » . وذكر ابن سعد فى الطبقات عبارة بإسنادها نصها : « بلغنى أن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر الفاروق ، وكان المسلمون يأثِرون

ذلك من قولهم ، ولم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من ذلك شيئاً » . وأىّ صح من هذه الروايات فقد كان عمر فاروقاً لا ريب . وذلك ما خلد اسم الفاروق على الزمن ؛ بقى لعمر إلى يومنا هذا ، وسيبقى له أبد الدهر .

أما شدته وغلظته فهى التى جعلت رسول الله يؤثر أبا بكر عليه ، ثم لا يؤثر عليه غير أبى بكر أحداً ، لإخلاصه وصراحته وعزمه وحزمه . وبلغ من شهرة عمر بالشدة والغلظة أن لم يخفف منهما ما كان له فى مواقف كثيرة من لين جانب ورقة عاطفة ذكرنا شيئاً منهما فى حديث إسلامه . روى أن عمر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن ، فلما أستأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب . ودخل عمر . ورسول الله يضحك ويقول : « عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب » . قال عمر : فأنت يا رسول الله أحق أن يهبن ، ثم قال : أى عدوات أنفسهن ! أتهبنى ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلن نعم ! أنت أفظ وأغلظ منه .

ولعل شدة عمر هى التى جعلت رسول الله يأمر فى مرضه أن يصلى أبو بكر بالناس . وغاب أبو بكر مرة فصلى عمر بالناس وكبر يصوته الجهير ، فقال رسول الله : « فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون » .

وقد تعجب لهذه الشدة وهذه الغلظة أين كانتا ساعة وفاة رسول الله ؛ إذ أذهل النبأ عمر عن الواقع فكذب من حاول إقناعه بالحقيقة الأليمة ، ووقف فى المسلمين يقول : « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ، وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . ووالله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهن زعموا أنه مات » فلما جاء أبو بكر ورأى رسول الله أيقن أنه مات ، فوقف فى الناس يقول : « إنه من كان يعبد مُحَمَّداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت » . (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُلُ أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ) . فلما تلا أبو بكر هذه الآية خرَّ عمر إلى الأرض ما تحمله رجلاه ، وكأنه لم يسمعها من قبل . فأين كانت شدته وغلظته هذه الساعة ! بل أين هو فى جزعه وهلعه

من ثبات أبي بكر رقيق القلب سريع الدمع خليل رسـول الله وصفيه ، وأين هو من تجلده ؟ !

على أن عمر لم يلبث حين راجعه صوابه أن عاد الرجل السياسى ، فأخذ يفكر فى مصير المسلمين بعد الحادث الفاجع . وقد كان لتفكيره ولتصرفه فى مواجهة هذا الموقف الدقيق من الأثر ما رد عن الإسلام كل عادية ، وما مهد لانتشاره فى الخافقين .